B. شعوب الشرق الأدنى

أعراق ما قبل التاريخ والشعوب التاريخية الأولى ـ

لغات الشرق القديم وكتاباته

I. مرحلة ما قبل التاريخ الشرقي
عصور ما قبل التاريخ وأعراقها

إن شعوب الشرق المتوسطي لطالما اعتبرت أعرق شعوب الأرض. فإذا أخذنا بالمصادر المدونة لا بد من أن نُقر اليوم، كما في الماضي، بأنه لا توجد في أي مكان آخر وثائق سابقة لتلك التي عُثر عليها في هذه البقعة.

لكن العلم الحديث، الذي وسّع إطار معرفتنا حول الشعوب البدائية، أتاح لنا فرصة تبديد الأساطير التي أحاطت الشعوب القديمة أصولها بها. فمن المسلم به اليوم أن أطر ما قبل التاريخ الشرقي هي بشكل عام الأطر نفسها لمرحلة ما قبل التاريخ العالمي. فخلال عشرات آلاف السنين كانت البشرية تتقدم بالطريقة نفسها في الشرق وفي أوروبا. وبالتحديد بدءاً من العصر النيوليتي، وعلى أثر تغييرات مناخية كبيرة، اختفى هذا التزامن وصار الشرق المتوسطي على مسافة من الغرب في مسار التقدم.

إن بدايات مرحلة ما قبل التاريخ العالمية تعود الى بضع مئات آلاف السنين. بما أن الكتابة ظهرت في مصر وبلاد ما بين النهرين العام ٣٣٠٠ قبل المسيح، ففي هذا التاريخ تقريباً تنتهي مرحلة ما قبل التاريخ في الشرق لتبدأ عصور التاريخ.

١ ـ العهود الجيولوجية والعصور الحجرية.

أ ـ التغييرات المناخية.

قد يفوق عمر الأرض مليار عام، وهو عمر يتوزع على عهود كبيرة عدة: الزمن ما قبل الأولي ويُقدر بـ٨٠٠ مليون سنة، والزمن الأولي ويُقدر بـ٣٥٠ مليون سنة، والزمن الثانوي ويقدر بمئة مليون سنة، والثالثي بثلاثين مليون سنة وأخيراً الزمن الرابع وهو

الذي شهد ظهور الإنسان لم يبلغ بعد مليون سنة. وهذه الأرقام لا تشير بالطبع إلا إلى أرقام نسبية.

إن العصر الرابع والإنسان شهدا ظواهر بركانية وانخسافات قارية كبرى. انخساف منطقة إيجه وغرقها وهي التي كانت تربط آسية الصغرى باليونان القارية رافقتها ثورانات بركانية. وقد تم اكتشاف آثار لوجود بشري معاصر لزمن الكارثة الكبيرة. وكانت قبرص متصلة بالأناضول.

هناك تغييرات أخرى، كان الإنسان شاهداً عليها، وهي تُعزى إلى تغييرات مناخية. وبإستثناء مساحة محدودة بمنطقة لبنان فإن الشرق القديم، نظراً لموقعه القريب من خط الاستواء، لم يشهد التجليد الذي كان يغطي معظم قارة أوروبا وآسية. ولكن أمطاراً طوفانية هطلت تبعتها فيضانات جارفة غمرت الأودية والهضاب وفتتتها. واقعة الطوفان تدل على أن الإنسان حفظ ذكراه كرواية مرعبة. وحدها بعض المرتفعات العالية من الشرق، كلبنان وأرمينيا، بقيت «كبقع نجاة». وكانت سهوب سورية وصحاريها والجزيرة العربية وصحراء أفريقيا المروية بالأمطار الدائمة والغزيرة، تغطيها النباتات الخضراء مما كان يؤمن حياة سهلة للإنسان الذي كان يعيش في ذلك الحين مرحلة «جامع الغذاء».

ب ـ جفاف الشرق المتوسطي.

وتحت تأثير التقلبات المناخية تراجعت المساحات الجليدية وتبع الأمطار الطوفانية في الشرق وأفريقيا الشمالية مرحلة جفاف لا تزال مستمرة، والتي بسببها ظهرت المناطق الصحراوية وظروف أقل صلاحاً لحياة الإنسان والحيوان. فتجففت هضبة الصحراء الأفريقية والهضبة العربية الكبيرتان منتقلتين من حالة السهول المعشبة الى حالة السهوب ثم إلى حالة الصحارى الرملية. ولا يزال هذا التحول مستمراً حتى أيامنا هذه وهو يعطي لبلدان الشرق مظهرها التاريخي: صحراء تنتشر فيها الواحات. وحدها المناطق الجبلية الرطبة بفعل قربها من المتوسط وسهول مصر وبلاد ما بين النهرين التي ترويها أنهار تنبع من الخارج، نجت من الجفاف.

إن الغياب التدريجي للنبات والحيوانات الوحشية أجبر الانسان على البحث عن مصادر جديدة كتربية القطعان ثم الزراعة. واندفع الناس والحيوانات في بحثهم عن الماء. وقد قدم النيل والفرات والأودية اللبنانية ـ السورية الرطبة، مرتعاً خصباً لاولئك البدو

المتجولين وهو مرتع استطاعوا الثبات فيه والانتقال من مرحلة جامعي الغذاء إلى مرحلة منتجي الغذاء.

وهذا التغيير في العيش عجل في تحولات الأداة الحجرية التي كان عليها أن تتهيأ مع الزراعة. إن عظام اولئك الحضر الأولين وأدواتهم هي اليوم مغطاة بـ٢٥ إلى ٣٠ متراً من الطمي المتراكم عند مصبات النيل والفرات.

إن تحول الهضبة السورية-العربية إلى صحراء تسارع منذ المرحلة التاريخية. فالعديد من المناطق المعرّاة اليوم من الحياة النباتية والحيوانية كانت لا تزال خضراء ومليئة بالطرائد في الألف الثالث في الجزيرة العربية وسورية، كما في أفريقيا. وبالاضافة إلى العوامل الطبيعية، فإن زحف الصحراء يعود أيضاً إلى قطع الأشجار وهذا بفعل النشاط المدمر للإنسان والقطعان.

إن الشرق المتوسطي الذي كان مترابطاً مع أوروبا الغربية في بداية عصور ما قبل التاريخ غدا معزولاً عنها خلال العهود اللاحقة. فكل عصر متجلد أوروبي يقابله مرحلة أمطار في الشرق، وكل مرحلة بين عصرين جليديين يقابلها في الشرق جفاف تدريجي. الإنسان الذي كان يعيش من الحيوانات كان يتبعها في هجرتها أولاً إلى الهضاب التي هي اليوم صحارى وأخيراً إلى ما أصبح السهول «التاريخية».

وأما شمال المتوسط فآخر عصر جليدي أجبر السكان على اللجوء إلى الكهوف. وان تطور الشعوب الذي يظهر في الأدوات التي كانوا يستخدمونها تباطأ، كما إن تطور الشرق الناجي من العصور الجليدية انفصل عن مسار تطور أوروبا وصار متحداً مع تطور شمال أفريقيا.

إن الجفاف التدريجي للشرق ولأفريقيا الشمالية هو جزء من جفاف تدريجي لكل الكرة الأرضية. وهذا الواقع جلي منذ بدء المرحلة التاريخية. وأما المناطق الشمالية والتي تعتبر أكثر بعداً عن خط الإستواء فكان تأثرها به قليلاً. وخلال المئة عام الأخيرة ارتفع معدل الحرارة السنوية في معظم القارة من ١ إلى ٤ درجات. وقد كان لهذا الإرتفاع آثار هامة على المناخ. ففي المناطق الشمالية صار الشتاء أكثر لطفاً والصيف أطول وأشد حرارة من السابق. وفي الشرق ازداد الجفاف أكثر.

إن جفاف الشرق الذي أوجد في البدء أسباباً طبيعية ملائمة لنمو الحضارة انتهى في اضطراده إلى تخفيض تلك الحسنات لصالح المناطق الشمالية التي صارت أكثر اعتدالاً

خلال العصور. فاشتداد الحرارة يبطىء معظم التطورات الحيوية للكائنات الحية ويؤخر نموها. ففي البلدان الاستوائية عامة فإن طول الانسان وقامته أقل مما هما عليه في البلدان المعتدلة. كما ان الحرارة تؤثر في الوقت نفسه على الوظائف الحياوية (البيولوجية) الأساسية للجسم وعلى الوظائف الأخرى كالاستيعاب والذاكرة والفكر.

ج ـ العصور الليتية أو الحجرية

وكما أن العهد الرابع ليس سوى لحظة بالمقارنة مع عمر الأرض هكذا المرحلة التاريخية للإنسان والتي لا يزيد عمرها عن خمسة أو ستة آلاف سنة هي لا شيء بالنسبة إلى أزمنة ما قبل التاريخ التي لا حصر لها.

ولدراسة الانسان البدائي يلجأ علم ما قبل التاريخ إلى أساليب عدة منها أسلوب علم الأثار الذي يحاول تصنيف الصناعات البشرية تبعاً لشكل الأدوات وإقامة ترتيب زمني لها. وقد استوحيت تسمية العصر الحجري التي نُعت بها عصر ما قبل التاريخ من الطريقة التي اعتمدها علم الأثار هذا. وتم تقسيم هذا العهد إلى ثلاث مراحل كبرى هي الباليوليتي أو عهد الحجر المقصوب، والنيوليتي أو عهد الحجر المصقول، والانيوليتي أو عهد الحجر والنحاس.

أدوات العصر الحجري مصنوعة من الصوان المقصوب أو من العظام المشغولة أو الفخاريات التي خلفها إنسان ما قبل التاريخ.

د ـ العهد الباليوليتي.

العهد الباليوليتي أو عهد الحجر المقصوب دام بضع عشرات أو مئات آلاف السنين وشهد حضارات وأعراقاً بشرية عدة انقرضت اليوم. وكان الانسان طوال تلك المرحلة في الشرق، كما في الغرب، يسكن الكهوف ويعيش من صيد السمك والحيوانات. في لبنان وسورية وفلسطين فإن آثار العهد الباليوليتي عديدة.

٢ ـ العهد النيوليتي في الشرق (٢٠,٠٠٠ ـ ٧٥٠٠)

في العهد النيوليتي أو عهد الحجر المصقول إنقطع التزامن بين الشرق والغرب إذ ظهر المناخ الأفضل في الشرق وأفريقيا عدة آلاف من السنين قبل بلدان الشمال. ففي حين كانت شعوب ما قبل التاريخ في أوروبا الغربية وقد شلّتها الظواهر

الجليدية مستمرة في العهد الباليوليتي حتى حوالي العام ٥٠٠٠ نرى الشرق المتوسطي والذي أصبح مناخه أكثر ملاءمة قد بدأ العصر النيوليتي حوالي العام ٢٠,٠٠٠ أو ١٦,٠٠٠.

وخلال العصر النيوليتي كان الشرق المتوسطي الذي بقي تطوره مرتبطاً بتطور أفريقيا الشمالية وعالم المتوسط،يتقدم نحو الحياة الزراعية والحضرية. وكان تكوينه الجغرافي بدأ يتخذ مظهراً صحراوياً تطور تدريجاً نحو شكله الطبيعي الحالي.

إن الصحراء الأفريقية الكثيرة السكان في مطلع العهد النيوليتي كانت مأهولة بالصيادين والرعاة والمزارعين. وإن الجفاف التدريجي أزال الغابات والبحيرات والأنهار والمستنقعات والسهوب وراحت الحيوانات تتراجع شيئاً فشيئاً نحو الجنوب. الصحراء بأسرها اليوم مليئة بالرسوم والصور المنقوشة على الصخور، فالعهد النيوليتي استمر فيها حتى العصر التاريخي (بعد ٣٠٠٠).

وأما في الشرق فقد بدأ الجفاف حوالي الألف السادس. ويقال أنه في الألف الثالث، كما ذكرنا، لم تكن المناطق الصحراوية في الجزيرة العربية وسورية ومصر خالية تماماً من الحيوانات والنبات.

إن العهد النيوليتي يتميز أيضاً بتطور كبير في صناعة الخزف وتنظيم الزراعة وتربية الماشية وإقامة المساكن المجموعة في قرى وبناء المنازل والقنوات والسدود والمدافن. الفرّاعات كانت مصنوعة من الصوان والحجر المصقول. المصنوعات الخزفية بدائية بلا زخرفة. الإنسان يأكل الخنزير والماعز والبقر والسمك، وكان يحرث أرضه بسكة محراث من الصوان، وكان يزرع القمح والشعير ويحصدهما بمناجل من صوان.

كل تلك التقنيات لم تكن بالضرورة معروفة من كل الناس النيوليتيين، إذ كان هناك أناس من البدو عرفوا تربية الحيوان من غير أن يمارسوا الزراعة. كما كان يوجد في فلسطين في بداية العهد النيوليتي سكان من الحضر يمارسون زراعة الحبوب قبل معرفة الحجر المصقول وتربية المواشي.

على العموم إن العهد النيوليتي يحدد بدء التنظيمات الحضرية والحاجة إلى تسخير أناس من قبائل أخرى واستغلال عملهم مما نجم عنه بعض الثراء وتوسعت التجارة

الدولية. واكتسبت النساء عادات الترف تدل عليها مساحيق التجميل والعقود. لقد ولد عالم جديد.

هكذا وفيما كان الشرق المتوسطي يتقدم بخطى سريعة نحو حضارات متألقة كانت أوروبا الغربية تتابع حياتها الخاملة في الظلام. وهذا الفارق يعود إلى آخر عصر جليدي أخّر موقتاً وربما أعاق تنمية الصناعة الإنسانية في أوروبا. غير أنه خلال الفترة الزمنية عينها فإن جفاف الهضبة الشرقية حوّل الصياد والراعي البدويين إلى مزارع حضري وصناعي.

٣ ـ العهد الانيوليتي في الشرق (٧٥٠٠ ـ ٣٥٠٠)

تميز العهد الانيوليتي الذي خلف العهد النيوليتي بالوجود المتزامن للصوان والنحاس المستخدمين في صناعة الأسلحة والأدوات التي كان الناس يستعملونها في ذلك الحين.

وقد ولدت تلك الحضارة في دلتا النيل وعيلام (بلاد ما بين النهرين). وإن انعدام وجود مناجم النحاس في ذينك البلدين يجعلنا نعتقد بأن شعوبهما كانا على صلة بالمناطق التي تنتج هذا المعدن: سيناء والأناضول وقبرص والقوقاز. عرف الشاطىء المتوسطي العهد الانيوليتي حوالي العام ٧٥٠٠، أما أوروبا الغربية فعرفته حوالي العام ٢٥٠٠.

أ ـ العهد الإنيوليتي في مصر

هناك مرحلتان من الحضارة الإنيوليتية في مصر ترتبطان بالنمو التدريجي لصناعة الخزف.

الحضارة الإنيوليتية الأولى (٧٥٠٠ ـ ٥٠٠٠) المعروفة بحضارة نيغادا، مركزها الجغرافي في منطقة طيبة في مصر العليا. الصيادون البدو، الذين صاروا حضراً، أسسوا قرى ومدافن. وكان الصوان والحجر المصقول يشكلان العنصر الأساسي للأدوات. الأواني كانت تصنع من الحجر الصلب. وفي صناعة الخزف كان يتم شي الطين وطليه لمنع تسرب السوائل،وتلوينه. وظهرت مواد من عظام وعاج وأخيراً بعض المقتنيات النحاسية كالإبر والدبابيس لوصل جلود الحيوانات.

إن حضارة نيغادا هي أفريقية بنوع خاص ومن صنع نيوليتيي منطقة طيبة الأصليين في جنوب مصر. ويبدو أنها لم تستورد أي شيء من الخارج.

الحضارة الانيوليتية الثانية (٥٠٠٠ ـ ٣٥٠٠)، وقد نشأت في دلتا النيل هي من صنع سكان أصليين اختلطوا بعناصر آسيوية. وقد جلب هؤلاء الآسيويون معهم الأدوات النحاسية وخوابي تحتوي على زيت الزيتون وأصماغ من سورية وفلسطين حيث كانوا قد أقاموا فترة قبل أن يتابعوا سيرهم نحو الجنوب.

وفي هذه الحضارة، تطورت الأدوات الحجرية وتقدمت. وبلغت صناعة الخزف درجة عالية جداً من التطور والكمال. وكانت الأواني والجرار تستخدم لحفظ الحبوب والفواكه والسوائل وحتى الجثث. وظهر النحاس في صناعة الحراب والفؤوس والإبر والدبابيس والزينة والأواني، كما عرف النسيج في العهد النيوليتي وأعطى قماشاً بدائياً إلا أنه متين ومنسوج بتناسق. كذلك تم استصلاح الأراضي وزراعتها في دلتا النيل.

وإن مصر مدينة للحضارة الانيوليتية الثانية، أي سكان دلتا النيل، في إنشاء التقويم الشمسي وتطور المفاهيم الدينية. وكان العام ٤٢٤١ عام البدء باستعمال هذا التقويم الأول. وقد غيّر ثم عدّل فيما بعد ليصبح التقويم العالمي المعتمد حتى يومنا هذا. وقد وضعت نظرية دينية واسعة وغنية كان لها أن تنمو في العهود اللاحقة. وفي العهد الانيوليتي ولد الفن المصري والترف. بينما لم تكن الصناعة في العهد السابق توفر إلا المنتجات محض الضرورية للحياة الحضرية.

إلى أي عرق كان ينتمي اولئك المصريون الذين انشأوا الحضارة الانيوليتية الثانية؟ يمكننا إستناداً الى الاكتشافات الأثرية التأكيد بأنهم سكان دلتا النيل الذين كانوا قد تهجنوا بكثرة مع آسيويين حملتهم موجة غزو حديثة.

«فالهياكل العظمية ذات الجماجم الكروية من النوع الأرمنادي، تظهر عرقاً من الغزاة ينتسب الى الجبليين، جاء بعضهم بحراً على مراكب سومرية الشكل والآخرون من برزخ السويس. هؤلاء الآسيويون اختلطوا مع الحاميين وأدخلوا صناعة الخزف الكنعانية ذات العروات واستخدام الذهب والفضة والنحاس والسبج والعنبر واللازورد بطريقة أشمل. وإن النقوش نفسها، التي تزيّن أواني وأسلحة وجواهر ولوحات المصريين المنبثقين من هذا الخليط، وجدت في بلاد ما بين النهرين بمدينتي أوروخ وأور»[1].

1 Alexandre Moret, *Histoire de l'Orient,* II, p. 803.

إن الحضارة الانيوليتية في الدلتا، المتوازنة مع حضارة نيغادا في الجنوب، دخلت تدريجاً المنطقة الجنوبية وما لبثت ان حلت محل الحضارة التي كانت فيها. وإن إندماج هاتين الحضارتين هيأ وسهّل توحيد مصر العليا والسفلى الذي حصل حوالي العام ٣٣٠٠.

ب ـ العهد الانيوليتي في بلاد ما بين النهرين.

وكما رأينا سابقاً في مصر فإن الحضارة الانيوليتية في حوض بلاد ما بين النهرين عرفت بدورها مرحلتين متتاليتين. حيث يقابل حضارتي نيغادا والدلتا (مصر) حضارتان هما: حضارة سوز الأولى وسوز الثانية. ولكن في حين أن حضارة نيغادا المصرية لا تظهر أي علاقة مع آسية الغربية فإن حضارة دلتا النيل على العكس من ذلك تظهر بعض التشابه مع حضارة سوز الثانية. ومما لا ريب فيه أنه وخلال العهد الانيوليتي فإن ميزات الحضارتين تبديان تشابهات أكثر مما تبديان اختلافات.

حضارة سوز الأولى (٧٥٠٠ ـ ٥٠٠٠). ـ موازية لحضارة نيغادا المصرية فإن حضارة سوز الأولى عرفت مدناً ومدافن. إن وجود أدوات من صوان وحجر مصقول تدل على وجود شعب من الصيادين فضلاً عن تجمعات حضرية تتعاطى الزراعة. وكانت مادة القار المتوافرة بكثرة في السهل تستخدم لتثبيت الأدوات في مقابضها الخشبية.

أما الأدوات المعدنية النادرة جداً بعد،فكلها من النحاس: كالمقصات والمخارز والإبر المثقوبة والمرايا المستديرة. أما تقنية الغزل والنسيج فقد أصبحت متقنة. وكانت أوانٍ حجرية صغيرة تستخدم لحفظ مساحيق تجميل النساء. أما الزينات فنادرة وركيكة. كما وجد تمثال صغير من طين فخاري بدائي الصنع ممثلاً الأم الكبرى وهي الإلهة الكبيرة لآسيا الغربية. إنه أقدم تمثال وجد حتى اليوم.

أما صناعة الخزف، فعلى العكس، هي تنم عن فن لا مثيل له: «الفخار ناعم، فاتح اللون، لا يدخله الحديد واللون البني. وكان يصنع على قرص دوّار لأن الأشكال المصنوعة متساوية للغاية... الخلاصة ان الخزف المدهون ذو لون واحد وعليه رسوم بالأسود أو بالأخضر على أساس فاتح: هذا هو شكله المميز... وتدهشنا النمنمة المنسقة للرسوم التي هي إما هندسية أو طبيعية»[2].

2 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 67-68.

إن حضارة سوز الأولى الأسيانية الأصيلة تعتبر عامة متفوقة من حيث الفن والثقافة على حضارة نيغادا المصرية المعاصرة لها.

حضارة سوز الثانية (٥٠٠٠ ـ ٣٥٠٠). ـ تطورت الأدوات الصوانية والحجرية المصقولة. وبالاضافة الى النحاس ظهر الذهب للمرة الأولى بشكل لآلىء وخواتم. غير أن صناعة الخزف، كما هي الحال في مصر المعاصرة لها، تراجعت في حين نرى تقنيات أخرى بلغت منتهى الإتقان. وإن أواني المرمر في سوز مشابهة لأواني الحجر الصلب في مصر. الأختام من الفخار والحجر الكلسي والحجر الصلب اتخذت أشكالاً متعددة.

وحوالي العام ٣٥٠٠ فإن حضارة سوز الثانية شعّت على كل آسية الداخلية فكانت حتى على صلة مع حضارة الهندوس كما تدلنا على ذلك بعض الأشياء التي هي من أصل هندي. «فيتمثل الثور الهندي كذلك داخل أحد الأبنية على إناء من حجر الطلق بتل أغرب. أما العلاقات التجارية مع وادي الهندوس فيشهد عليها استيراد العقيق الأحمر والخزف المبرغل إلى وادي الفرات وتصدير القار نحو وادي السند»[3].

إن حضارة سوز الثانية هي من صنع سكان المنطقة الأسيانيين الأصليين وقد اختلطوا مع الآسيانيين الوافدين من الهضبة الايرانية. فمع هذا العرق الهجين تنازع السومريون، وهم آسيانيون قدموا حديثاً من آسية الوسطى والأكاديون الأول وهم ساميون مهاجرون من شبه الجزيرة العربية خلال الألف الرابع للسيطرة على المنطقة. وبعد سوز الأولى وسوز الثانية يعود الفضل في صنع ثقافة تلك البقعة في العهد الانتقالي للتاريخ وحضارتها التاريخية، الى السومريين المستقرين في دلتا النهرين بدءاً من العام ٣٥٠٠.

وهكذا ففي بلاد ما بين النهرين، كما في مصر، فإن الحضارة الانيوليتية هي صنيعة سكان محليين، تجددت بفعل قدوم عناصر إثنية من الخارج.

ج ـ العهد الانيوليتي في فلسطين ولبنان.

إن الحضارة الانيوليتية في فلسطين ولبنان تلت هجرة شعوب جاءت من المناطق الشمالية القريبة من المراكز المنجمية حوالي مطلع الألف الرابع. وظهر صقل

3 L. Delaporte, *Le Proche-Orient asiatique*, p. 67.

الحجارة وكثرت الصناعات الفخارية وبدأ في الوقت نفسه استخدام المعدن. وقد وُجد في مدينة جبيل مدفن انيوليتي غني.

د ـ المرحلة الانتقالية (Protohistoire)(٣٥٠٠ ـ ٣٣٠٠)

حوالي العام ٣٥٠٠ انتهى عهد ما قبل التاريخ في الشرق المتوسطي وتبعته في هذه المنطقة فترة انتقال دامت ٢٠٠ سنة تقريباً (٣٥٠٠ ـ ٣٣٠٠) وعرفت بالفترة الانتقالية للتاريخ وهي الفترة الوسيطة بين عصور ما قبل التاريخ وعصور التاريخ. بدأت هذه الأخيرة مع اختراع الكتابة حوالي العام ٣٣٠٠. وقد شهد مطلع الألف الثالث ظهور معدن البرونز. وفي هذا الوقت كانت أوروبا، باستثناء منطقة إيجه، ما تزال تجهل النحاس والبرونز والحضارة المدينية. وأما في أفريقيا فكان العهد النيوليتي مستمراً.

٤ ـ الأعراق ما قبل التاريخية في الشرق

أ ـ الإنسان البدائي

إن أقدم المتحجرات البشرية متمثلة حالياً ببقايا السينانتروب وبقايا إنسان هايدلبرغ. وهذان العرقان البشريان يجب اعتبارهما كفرعين جانبيين لشجرة السلالة الإنسانية.

كما أنه علينا أيضاً اعتبار عرق نياندرتال على أنه فرع جانبي من هذه الشجرة. وإلى هذا العرق ينتسب إنسان غاليلنسيس الذي عثر عليه في فلسطين. إن كل هذه الفروعَ الجانبية انقرضت نتيجة التغييرات المناخية. وحده الفرع البشري المعروف بالهومو سابينس استمر وانتشر معمراً الأرض.

تفيدنا مرحلة ما قبل التاريخ أيضاً أن المخلوقات الأولى التي بوسعنا إطلاق إسم الإنسان عليها،حتى تلك المنتسبة الى الفروع الجانبية كانت تتمتع وقتئذ بالذكاء وأن تلك الملكة كانت عنصر التطور البشري. وأكثر من ذلك فهذه الملكة لم تكن مجرد غريزة حيوان في حال تطور بل كانت تمتلك منذ ذلك الحين أفكاراً روحية وفنية. كما يعلمنا أخيراً علم ما قبل التاريخ أن لا فرق البتة بين أدوات الناس البدائيين، أكانوا شرقيين أم غربيين، وان الأنواع الإنسانية المختلفة تنحصر في عدد ضئيل من الأعراق انتشرت في كل مكان.

وبالنتيجة لم يعد من الممكن اعتبار مصر وبلاد ما بين النهرين مسكناً لأقدم شعوب الأرض أو مراكز وحيدة لأول مجتمعات بشرية. وإذا كان هذان البلدان المقرين الأساسيين للحضارات التاريخية الأولى فلأن الطبيعة حالفت سكانهما وساعدتهم أكثر من سواهم. غير أن ذلك لا ينفي إرتباطهما الأكيد بحضارة عالمية ما قبل تاريخية منتشرة على مساحة شاسعة.

ب ـ أعراق ما قبل التاريخ: المتوسطيون، الألبيون، الشماليون.

كان إنسان الهومو سابينس في المرحلة النيوليتية والذي وحده استطاع الاستمرار ممثلاً في آسية الغربية وأوروبا بتشكيلة من اللون الأبيض يقسمها العلماء المعاصرون الى ثلاث مجموعات أو أعراق بشرية، وتختلف عن بعضها بعضاً من حيث شكل الجمجمة والوجه ولون البشرة والقامة. وهذه المجموعات الثلاث هي: المتوسطيون الألبيون أو الجبليون والشماليون.

العرق المتوسطي.ـ إن أناس النوع المتوسطي هم سُمر، طوال الوجوه، معتدلو القامة، أصلهم غير معروف. لكن أول ما ظهروا كان حوالي العام ٢٠,٠٠٠ على وجه التقريب في مصر وفلسطين وسورية وبلاد ما بين النهرين ولبنان، وحوالي العام ٧٥٠٠ في أوروبا الغربية.

العرق الألبي.ـ إن الناس من النوع الألبي أو الجبليين ويُعرفون أيضاً بالأسيانيين يبدو أنهم جاؤوا من مناطق الأورال والألطاي وأطراف القوقاز البعيدة، حيث بدأوا بالانتقال نحو الغرب والجنوب منذ أواخر العصور الجليدية. وبعدما انتشروا في أرمينيا وإيران تغلغلوا أيضاً في العالم الشرقي وبخاصة في عيلام وبلاد ما بين النهرين السفلى حيث استوطن العيلاميون والسومريون من الألف الخامس حتى الألف الرابع. إن الألبيين وبخاصة السومريين هم على الأرجح مكتشفو المعادن كالنحاس والبرونز في الشرق القديم؛ كما أدخلوا استخدام الحصان واستعمال الدولاب ولاحقاً استخدام الكتابة المسمارية (السومريون).

أما رؤوسهم فقصيرة وكروية وأنفهم ناتىء وفي الغالب معقوف كأنف النسر ومناخرهم عريضة وشفاههم غليظة.

العرق الشمالي.ـ إن أناس النوع الشمالي هم من الشُقر طِوَال القامة، ووجوههم مستطيلة. تركوا روسيا الوسطى وسيبيريا، ووصلوا مع الذوبان التدريجي

للثلوج إلى ضفاف البلطيق، وبتاريخ أقرب (العام ٢٠٠٠ تقريباً) إلى ضفاف المتوسط. وحملوا معهم صناعة الحديد الذي استخدم على نطاق واسع في بلاد ما بين النهرين ومصر حوالي العام ١٣٠٠، وفي جزر إيجه حوالي العام ١٠٠٠. وأهم مجموعة من الشماليين كانت مجموعة الآريين البدائيين الذين عرفوا فيما بعد بالهندو ـ أوروبيين.

إن تلك المجموعات الثلاث الرئيسية التي تحدر منها السكان الأوروبيون والشرقيون لا تزال حتى اليوم، بشهادة علماء الانسان، تحتل الأمكنة التي سكنتها في الماضي.

ساميو الجزيرة العربية. ـ ولا بد لنا من إضافة مجموعة فرعية الى هذه الأعراق الثلاثة القديمة وهو السامي البدائي أو بدوي الصحراء العربية، الذي ينتمي الى العرق المتوسطي. وإن ما يميز السامي عن المتوسطي بحد ذاته ليست سماته الجسدية بقدر ما هي ظروفه الاجتماعية أو ميزاته العرقية التي قولبتها الحياة البدوية. وهذا العرق المتمثل اليوم بعرب شبه الجزيرة العربية ما زال يعيش في المكان نفسه حتى الآن.

ومن المفيد أن نذكر بأن التوراة قد صنّفت هي أيضاً الشعوب التي كانت تعيش في أيامها في ثلاثة أعراق فجعلت من الساميين والحاميين، الذين يصنفهم علماء الإنسان المعاصرون من العرق المتوسطي، عرقين مختلفين. في حين سمت المجموعة الثالثة أي الشماليين باليافتيين. والكتاب المقدس الذي لم يكن يتوخى في تصنيفه هذا الصفات الجسدية بل الخارطة السياسية، تجاهل الألبيين.

II. الشعوب التاريخية الأولى، لغات الشرق القديم وكتاباته

١ ـ الأعراق الأكثر قدماً في الشرق الأدنى

قد يكون الهوموجاليلنسيس الذي عثر عليه في فلسطين سابقاً للهوموسابينس وبالتالي فهو أقدم نوع بشري عُرف في الشرق.

وخلال المرحلة النيوليتية سكنت أعراق بشرية جديدة آسية الغربية وأفريقيا الشمالية وأوروبا. وهي التي جعلت الشرق صالحاً للزراعة.

وحتى مطلع الألف الثالث كانت شعوب الشرق الأدنى تتألف من عرقين: المتوسطيون والألبيون، ويسكن كل منهما منطقة مجاورة للأخرى. كان المتوسطيون ينتشرون على الشواطىء من الدردنيل حتى المغرب مروراً بسورية ومصر، وأما الألبيون فمن هضاب الأناضول حتى الهند مروراً بوادي الفرات ـ دجلة. وكانت الاتصالات بين هذين العرقين قد أصبحت كثيفة في الألف الرابع. وحوالي العام ٣٠٠٠ بدأ ساميو الجزيرة العربية يتوافدون. وبدءاً من العام ٢٠٠٠ راح الشماليون يتدفقون نحو الأراضي المشمسة في الجنوب ويستقرون في إيران وآسية الصغرى حيث اندمجوا بالسكان الأصليين وبعدها بقليل بالمتوسطيين والألبيين والساميين من أهالي بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر.

ومثلما كان الآريون البدائيون المجموعة الشمالية التي لعبت دوراً حاسماً على مسرح التاريخ القديم كان الساميون الرعاة بدورهم المجموعة المتوسطية التي كان لها تأثير رئيسي على مصائر الشرق القديم. فالآريون والساميون الأوائل، بمجرد توسعهم واختلاطهم بالشعوب الأصلية التي سيطروا عليها واحتووها، أوجدوا مجموعتين لغويتين

كبيرتين وهما: المجموعة الهندو ـ أوروبية والمجموعة السامية وهما اليوم العالم الأوروبي ـ الأميركي والعالم العربي.

٢ ـ توالي الأعراق والشعوب وتراكمها في الشرق الأدنى

إن الأعراق الأربعة المبينة أعلاه فضلاً عن المجموعات الخلاسية التي تولدت من اختلاطها، توالت وتراكمت أو اندمجت في عالم الشرق الأدنى منذ نهاية أزمنة ما قبل التاريخ.

إن المتوسطيين سكان دلتا النيل، وهم الكوشيون ـ الحاميون، المنتشرون من الحبشة حتى دلتا النيل والمختلطون بالألبيين والساميين الوافدين من الشرق، أعطوا شعب المصريين الأولين التاريخيين. وهذه العناصر المتنوعة التي انصهرت خلال الألف الرابع في مصهر وادي النيل شكلت شعباً قُيض له أن يظل دوماً متجانساً: فوادي النيل يبوتق دائماً العناصر العرقية الأكثر تبايناً.

فالخلف المجهولون المتحدرون من النيوليتيين الأصليين، المتوسطيين في سورية والألبيين في بلاد ما بين النهرين الممتزجين بالبدو الساميين المتغلغلين والمستقرين في الألف الرابع، شكلوا آرومة السكان التاريخيين الأولين في الهلال الخصيب. كما عملت الهجرات السامية المتتابعة واللاحقة لموجة الهجرة السامية الثانية المندفعة من الجزيرة العربية مطلع الألف الثالث على توطين الكنعانيين في فلسطين والكنعانيين ـ الفينيقيين في لبنان والأموريين في سورية والأكاديين والأموريين (البابليين العتيدين) في بلاد ما بين النهرين.

وبدءاً من العام ٢٠٠٠ بدأت بلدان الشرق الأدنى الأخرى تكشف لنا عن شعوبها الأولية. آسية الصغرى وإيران اللتان هزتهما الهجرات الآرية أو الشمالية استدارتا جنوباً. فخلال قرون عديدة وعلى فترات شبه منتظمة كانت ممرات جبال طوروس وزاغروس تفسح الطريق أمام عبور المجتاحين الشماليين والآسيويين المتنوعين: كالآريين والهندو ـ أوروبيين والآسيانيين ولاحقاً الأوروبيين والآسيويين من كل انتماء.

وبتدفقها المتناوب أو المتزامن أحياناً نزولاً من الشمال أو صعوداً من الجنوب، فإن الموجات التوسعية الشمالية منها والسامية هزت العالم الشرقي بتنقلاتها

الدورية واتصالاتها وامتزاجاتها المتكررة. وهي بتوجهها نحو اهلال الخصيب صبّت فيه على التوالي مجموعات من الشعوب المختلفة، الأسيانيين الحوريين القادمين من أرمينيا والأريين الميتانيين الكاسيين الوافدين من جبال زاغروس والآريين الحثيين من الأناضول والساميين الآراميين والعبرانيين من الجزيرة العربية والفلسطينيين من إيجه، والأشوريين والكلدان وهي مزائج غير متجانسة ذات أغلبية سامية، والعرب - النبطيين وأخيراً الفرس، آريي آسية، واليونان والرومان آريي أوروبا والعرب وهم اخر موجة سامية كبيرة ثم الأتراك إلخ...

ومن المهم التأكيد هنا على أن مصر القديمة التي كانت على اتصال مستمر بالممر الكنعاني-الفينيقي لم تزود أبداً تلك المناطق بالعناصر العرقية المصرية. إن الممر الفلسطيني-اللبناني الذي مارس عليه الفراعنة طيلة آلاف السنين هيمنة غير منقطعة تقريباً لم يشكل أبداً في نظر سكان دلتا النيل منطقة إعمار. بل على عكس ذلك، فإن الآسيويين، ومنذ أزمنة ما قبل التاريخ، هم الذين كانوا يتسللون جماعات كبيرة إلى دلتا النيل. ولنذكر هنا ان المصري، الحضري والمسالم لا يحب الهجرة إطلاقاً بعكس السامي البدوي المتحرك والمحارب.

٣ ـ اللغات الشرقية الأولى وكتاباتها

يقابل المجموعات البشرية الثلاث التي سكنت الشرق القديم، وهم المتوسطيون، والألبيون والشماليون، ثلاث عائلات لغوية تتضمن كل منها لغات متنوعة تنوعَ المجموعات العرقية أو الشعوب. هكذا تنتمي اللغات الحامية (المصرية) والسامية إلى العائلة المتوسطية. أما لغات المتوسطيين الأصليين الآخرين ما قبل التاريخية لا سيما لغات فلسطين ولبنان وسورية فقد زالت من غير أن تترك أثراً. تبقى اللغات الآسيانية والهندو-أوروبية التي تنتمي على التوالي إلى الألبيين والشماليين.

أ ـ اللغة الحامية: المصرية القديمة

إن اللغة المصرية القديمة لا تزال مستمرة الى اليوم في اللغة القبطية التي بقي المصريون يتكلمون بها حتى مطلع القرن السادس عشر بعد المسيح وهي لغة ميتة اليوم ولا تستخدم إلا في الكتب الطقسية الخاصة بالمسيحيين المصريين (الأقباط) تماماً كاللاتينية في أوروبا أو السريانية في سورية ولبنان أو الكلدانية في بلاد ما بين النهرين.

ب ـ اللغات السامية القديمة

إن عائلة اللغات السامية التي أصبح العديد منها ميتاً اليوم بعد ان كان يستعمل في الشرق الأدنى القديم،هي اليوم ممثلة باللغات العربية والعبرية والحبشية.

الأكادية أو الأشورية ـ البابلية.ـ في بلاد ما بين النهرين كانت الأكادية هي أول لغة سامية وقد انفصلت رويداً رويداً إلى لغتين محليتين هما البابلية في الجنوب والأشورية في الشمال. إن النقوش الأشورية-البابلية الأخيرة المعروفة تعود إلى مطلع العهد المسيحي. الأدب الأشوري-البابلي هو أحد أهم الآداب، والنصوص التاريخية والعلمية فضلاً عن المؤلفات الأدبية والعقود والنصوص الدينية والمعاجم كلها تشكل مجموعة فائقة التنوع.

الكنعانية، الفينيقية والعبرانية.ـ كانت الكنعانية هي اللغة السائدة على طول الساحل السوري-اللبناني-الفلسطيني وكانت هذه اللغة تشمل الفينيقية والعبرانية. ولقد كانت اللغة الكنعانية تشبه إلى حدّ كبير البابلية وهذا يؤكد، كما سنرى لاحقاً صلة القربى بين العرقين.

إن اللغة الكنعانية ـ الفينيقية هي بين الآرامية والعبرانية. فنصوص رأس شمرا التي عثر عليها وترجمت بدءاً من العام ١٩٢٩م. أظهرت أدباً كنعانياً كبيراً يتحدث عن التقاليد الفينيقية، وهي مكتوبة بلغة قريبة جداً من العبرانية وفيها نصوص ملحمية ودينية أو متصلة بالحياة اليومية وتعود إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م. ويبدو أن اللغة الكنعانية-الفينيقية لم تكن متشابهة في كل مكان. فذلك النقش على معبد جبيل يتميز ببعض الفروقات التي تجعلها مختلفة عن فينيقية نقوش صور وصيدا. كما نلاحظ فروقات بين نقوش فينيقيا نفسها ونقوش شمال أفريقيا البونية. أما العبرانية فهي اللغة التي كتبت بها التوراة خلال عصور مختلفة،وبعض أجزاء العهد القديم وضع أصلاً بالآرامية.

الآرامية.ـ إن الآرامية التي تمثلت لاحقاً في اللغتين الكلدانية والسريانية تشكل الفرع الأهم من اللغات السامية. من الناحية الأدبية هي أدنى مستوى من العربية والعبرانية ولكن وبفعل انتشارها غدت اللغة التي يستخدمها كل سكان أشور وبابل وسورية وحتى فلسطين ولبنان. وإثر عودتهم من بابل، استخدم العبرانيون الآرامية، وصارت العبرانية لغة ميتة. وفي مطلع عهدنا الحاضر كانت الآرامية هي اللغة الشائعة في الجليل واليهودية.

أما أهم لغة آرامية فهي السريانية. وهذه التسمية أطلقها اليونانيون عليها. وقد استخدم الآراميون أو السوريون المسيحيون اللغة السريانية لتمييز أنفسهم عن الآراميين الذين ظلوا وثنيين. وكان مركز السريانية مدينة قَدَس (أورفا حالياً) التي كانت عاصمة دولة اسروهين الآرامية. وقد فقدت هذه اللغة من أهميتها إثر الفتح العربي واختفت كلياً تقريباً في القرن الرابع عشر ب.م. إثر غزو التتر. تبقى السريانية الحديثة اللغة الليتورجية في الكنائس الشرقية. وفيها العديد من الكلمات العربية والتركية والفارسية والكردية واليونانية.

إن جميع هذه اللغات السامية متقاربة إلى درجة أن بعض علماء اللغة، ومنهم بروكلمان، يقول بأنها تتحدر من لغة واحدة قد اندثرت.

ج ـ اللغات الآسيانية

هي من النوع المعروف بالمركب المزجي ومن أوائل اللغات التي عرفت في مختلف أجزاء آسية الغربية القديمة. أهمها اللغة السومرية التي اختفت حوالي العام ٢٠٠٠ بعدما تغلبت عليها السامية (الأكادية)، لكنها بقيت لغة الطقوس الدينية حتى أواخر الحضارة الأشورية-البابلية.

د ـ اللغات الهندو ـ أوروبية القديمة

إنها اللغات التي تنتمي إليها لغات أوروبا الحديثة وأميركا وهي ممثلة في آسية الغربية القديمة بالفارسية القديمة والحثية والأرمنية والكردية.

هـ ـ الكتابة الشرقية القديمة

إنها الكتابة الصورية التي تمثل الأشياء. فالسومريون والمصريون القدامى هم الذين اخترعوا الكتابة في آن واحد. الهيروغليفية أي الكتابة المصرية هي صوتية ورمزية معاً، فالصورة تعبر عن الأفكار والإشارات تعطي الأصوات.

أما الكتابة السومرية فتسمى المسمارية بسبب شكل الإشارات التي تشبه المسامير. وهذا الشكل فرضه استخدام الأشورو ـ بابليين للوحات الفخارية التي كانوا يكتبون عليها بواسطة محراف (مسبر). وهذه الكتابة مؤلفة من مئات عدة من الإشارات، وكانت شديدة التعقيد، ومع هذا استمرت في آسية الغربية حتى العهد المسيحي بالرغم من اكتشاف الأبجدية واستخدامها.

كان للكتابة دوماً في البدء طابع مقدس وكانت من اختصاص الكَتَبَة وهم طبقة على صلة وثيقة بالكهنة. وبما أن طبقة الكتبة كانت تمتلك المعرفة الأدبية فإنها مارست خلال السنوات الثلاثة آلاف من تاريخ الشرق السامي ـ الحامي نفوذاً كبيراً على تطور المجتمعات القديمة.

والفينيقيون هم الذين حوّلوا الإشارات المسمارية إلى حروف أبجدية. لكن هذه الأبجدية التي اخترعت حوالي منتصف الألف الثاني، احتاجت، ككل الاختراعات القديمة، إلى أكثر من ألف سنة لتحقق انتشارها خارج المنطقة الفينيقية. إن اللغة الآرامية أو السريانية، وهي أكثر مرونة، بتبنيها الأبجدية الفينيقية، أزاحت هيمنة الكتبة لآلاف سنين خلت، وحلّت محل اللغة الأكادية أو الأشورو ـ بابلية على ضفاف دجلة ـ الفرات. وأما في مصر، وفي القرن الثالث ق.م.، إعتمدت الألفباء الإغريقية المقتبسة من الفينيقيين لكتابة اللغة الهيروغليفية بها.

٤ ـ الخاتمة

أ ـ التركيب الإثني

إن الأعراق أو الشعوب التي شهدتها أراضي الشرق القديم منذ أزمنة ما قبل التاريخ حتى العهد المسيحي شكلت منذ أوائل العهود مجموعات جغرافية متميزة تطابق من حيث المدى، التنوعات الإقليمية في تلك المنطقة.

وبالرغم من تعدد العناصر الإثنية الممتزجة وتعقدها، فإننا نلاحظ، ومنذ فجر التاريخ، غلبة العنصر السامي في سورية ـ وبلاد ما بين النهرين واستمرارية العنصر الحامي في مصر.

إن الهلال الخصيب، وقد غدا سامياً منذ الألف الثالث قبل المسيح، بقي على ساميته حتى يومنا هذا. فالساميون العرب خرجوا من الصحراء منذ ما قبل العام ٣٠٠٠ ق.م.، واستمروا بعد هذا التاريخ في تدفقهم أو تغلغلهم إلى سورية ـ بلاد ما بين النهرين. ونظراً إلى تفوقهم العسكري على أهل الحضر فقد فرضوا عليهم سيادتهم.

غير أن شعوب الهلال الخصيب التي غدت سامية، يختلف كل منها عن الآخر قدر اختلافه عن الساميين الأصفياء العِرق الذين أسهمت عناصرهم في تكوين هذه الشعوب. فالأشكال الجسدية لخلاسي ما بين النهرين وكذلك البابلي والأشوري والسوري والعربي الجنوبي هي مختلفة كل منها عن الآخر، ناهيك بأن لكل خلاسي منهم لغته الخاصة به وطباعه المتميزة. وحدها السمة السامية العامة تضفي عليهم ملامح القربى: لغاتهم ذات الأصل المشترك وعاداتهم الاجتماعية الممهورة بطابع الصحراء.

فيمكننا إذن القول إن الشعوب السامية القديمة في الهلال الخصيب هي عرقياً مجموعات مركبة «ذات غالبية سامية». وكمجموعات لغوية فهم ينتسبون بلا شك إلى أسرة الساميين الكبيرة.

ب ـ إستحالة التطبيع الثقافي في الشرق المتوسطي (المناعة الثقافية للشرق المتوسطي).

إن الهلال الخصيب، ومنذ اكتسابه ساميته، أظهر مناعة تامة من الناحية الثقافية في وجه أي احتواء غير سامي. بل على العكس فإن الهلال الخصيب ودلتا النيل تقبلا جميع العناصر الهندو ـ أوروبية والشمالية والأسيانية والأسيوية واحتوياها مهما كان عددها. وفي حين توارت جميع لغات السكان الاصليين أمام اللغات الهندو ـ أوروبية من الهند حتى شمال الأطلسي، فإن اللغات والثقافات السامية والحامية رفضت الإنصياع. غير أن تلك العناصر المختلفة تظهر أحياناً بطريقة ما في حضارات مختلطة كما في سورية ومصر مثلاً حيث لم تكن الهللينية إلا سطحية.

وفي الألف الأول ق.م.، حلّت لغة سامية أخرى هي الآرامية (السريانية أو الكلدانية) محل اللغات السامية العديدة التي كانت في الهلال الخصيب (البابلية والأشورية والفينيقية والأمورية والعبرية).

إن ألف عام من الثقافة والسيطرة اليونانية-الرومانية لم تتمكن من إزالة لغاته الأصلية: فظل الهلال الخصيب يستعمل لغته السامية ـ الآرامية ومصر الحامية ـ المصرية. إلا أن ساميي الهلال الخصيب وحاميي وادي النيل إعتمدوا بسهولة لغة وثقافة ودين عرق شقيق هو الساميون العرب المسلمون ومصدره الجزيرة العربية السامية.

وينطبق هذا بدوره على أفارقة الشمال الذين جعلهم الفينيقيون ساميين في الألف الأول ق.م.، وقد قاوموا بنجاح الثقافة اللاتينية في حين تخلوا تحت الحكم العربي عن اللغة السامية ـ الفينيقية واعتمدوا لغة الساميين الجدد.

كما أن الشرق العربي، وفي مرحلة ضمه طيلة ٤٠٠ عام الى الأمبراطورية العثمانية التي كانت التركية لغتها الرسمية، حافظ بحزم على لغته وثقافته الخاصتين به.